

قراءة في ملامح التفسير النحوي عند قدماء العرب
Reading in the features of the grammatical
interpretation of the ancient Arabs

د. عزيز كعواش

أستاذ محاضر (أ) بقسم الأدب العربي - كلية الآداب واللغات

جامعة محمد خيضر - بسكرة

aziz.kaouache@univ-beskra.dz

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن جانب من المنهج الذي اتبعه النحاة الأوائل في تفسيرهم للظواهر اللغوية في القرآن الكريم، حتى غدت أعمالهم ومدوناتهم اللغوية للنص اللغوي القرآني ككتب المعاني ومجازاته بذورا لموجة واسعة بعد ذلك في ميدان التفسير، عرفت بالاتجاه أو المنهج اللغوي والنحوي في تفسير القرآن الكريم. اعتمد فيها النحاة على مجموعة من الآليات التفسيرية اللغوية، انطلاقا من فكرة الاتفاق بين النصوص الفصيحة والقواعد النحوية. فتشكلت حينها البدايات الأولى للتأويل النحوي الذي شكل ظاهرة نحوية في تراث النحويين والمفسرين من أصحاب هذا الاتجاه. وقد عرفت تلك المصنفات التفسيرية بمعاني القرآن وإعرابه، والتي كان الإعراب فيها متداخلا مع معاني القرآن باعتباره أداة من أدوات فهم المعنى القرآني.

الكلمات المفتاحية: منهج اللغوي؛ تفسير النحوي؛ معاني؛ إعراب؛ مجاز.

Abstract:

This research aims to reveal a part of the approach taken by the early grammarians in their interpretation of the linguistic phenomena in the Qur'an, so that their works and their linguistic blogs of the Qur'anic linguistic text, such as books of meanings and metaphors, became the seeds of a wide wave afterwards in the field of interpretation, known as the direction or method of language in the interpretation of the Qur'an. The grammarians relied on a set of linguistic explanatory mechanisms based on the idea of agreement between the eloquent texts and the grammatical rules. These interpretative works are known as the meanings of the Qur'an and its expressions, in which the expression was intertwined with the meanings of the Qur'an as a tool of understanding the Qur'anic meaning.

Keywords: linguistic method; grammatical interpretation; meanings Parsing ; Metaphor.

مقدمة

كان للنحاة ولا يزال لهم نوع من الرقابة على اللغة بسبب انقطاعهم لها وتمرسهم بأساليبها إعرابا وبناء وبنية ومادة صياغة وتأليف، حتى صاروا بحق أمناء سرها. وكان نصيب القرآن الكريم من درسه أكبر من نصيب الشعر والنثر، فاهتموا به اهتماما كبيرا لأنه مصدر دراساتهم وفكرهم ينهلون من معينه الذي لا ينضب.

والدراسات القرآنية عند النحاة واللغويين موصولة الصلة بالعقيدة الإسلامية، إذ جاءت نتيجة حتمية لخدمة الكتاب، عاشت في ظله وأثمرت نتائج كان لها كبير الأثر في الثقافة الإسلامية حينها.

لقد اتجهت طائفة اللغويين خلال القرون الثلاثة الأولى إلى دراسة القرآن وفهم منهجه اتجاهها نحويًا. فأخذت تعنى بإعراب القرآن، ثم توسعت في ذلك فتناولت بالدراسة علل التأليف أو علل الإعراب. وكان الباحثون في النحو من النحاة القدماء معنيين بالقرآن، يدرسون النحو على أنه أداة لتصحيح لغة القرآن، بمعنى أن تصحيح القراءات عندهم غرض من أغراض النحو. ويؤيد هذا أن أوائل الدارسين من النحاة هم أنفسهم من القراء أو ممّن عُثُوا بالدراسة القرآنية، كابن أبي اسحاق الحضرمي وأبي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد وعلي بن حمزة الكسائي ويحيى بن زياد الفراء وغيرهم من لغويي القرون الثلاثة وما بعدها.

كما كانت نشأة النحو مرتبطة بالقراءات ومتصلة بها أوثق اتصال، وقد شارك النحاة بجهدهم في تيسير قراءة القرآن، ودفع ما كان يلتبس على بعض القراء من مروى القراءات من حيث الصحة والشذوذ، حتى صار دور النحو مهمًا في بيان موقع مفردات القرآن، مضاهيا بل متفوقا على دور اللغة في التأصيل والاشتقاق. وقد حققا معا علاقات النظم القرآني كما برز ذلك جليا مع الجرجاني بعد ذلك.

لقد مثلت مدونات النحاة العرب هذه المعروفة باسم معاني القرآن ومجازاته ميدانا خصبا لنشأة علم التفسير النحوي، حيث تحولت اجتهادات النحويين وعلماء اللغة الأوائل الذين لم يعيؤوا كثيرا بموجة التحرج من تفسير القرآن الكريم من طريق الرأي بعد ذلك أساسا لعلم التفسير اللغوي ولمصنفاته.

ولذلك كانت إشكالية هذه الدراسة عن ملامح التفسير النحوي واللغوي ودور النحو خاصة تنحصر في أمرين؛ أحدهما أن تُبين الدراسة أن النحو عند القدماء كان ولا يزال عاملا هاما في فهم النص وتوجيه قراءته، وثانيهما أن يعرف القارئ أن النحو ليس صناعة تتلقى ولا رياضة عقلية بقدر ما هو أساس لتحليل النص وبيان وجوه إعجازه. و في سبيل هذا كله أُشِرْتُ إلى أن اللغويين الأولين من أهل التفسير كانوا يستخدمون النحو لهذه الغاية، وجعلوه عمدة

بحوث التفسير اللغوي لأنه عندهم أكبر الأدوات التي تفهم بها النصوص وتبرز وجه إعجازها.

ولما كان البحث يرنو إلى دراسة جهود اللغويين الأوائل في مجال التفسير اللغوي والنحوي دراسة متشعبة بأصول التفسير اللغوي التي تبرز ما لهذا المنهج من خصائص وثراء، فإنه بغية الوصول إلى ذلك اختار الباحث أن يسير على خطى المنهج الوصفي مع آلية التحليل استقراء وتتبعاً وتحليلاً لكونه لا يكتفي بالوصف السطحي للظاهرة المدروسة.

1 - النحاة والنص القرآني

لم يغال الدارسون عندما قرروا أن النحاة القدماء كانوا من أوائل العلماء الذين لهم شرف السبق في خدمة النص القرآني، يقول سيد أحمد خليل « وإذا كان التفسير القرآني سار أول أمره في طريق الرواية واتبع منهاجاً تخرجياً من المفسرين، فإن النحاة كانوا من أوائل الدارسين الذين لفتوا إلى الاعتماد على اللغة في التفسير، ما دام القرآن نزل بهذه اللغة¹. كان شأن النحاة كشأن سائر اللغويين من الداعين بهذا إلى تفسير القرآن في حدود اللغة.

ومن الواضح أن اللغويين والنحاة كانوا يحرصون معاً على جانب المعنى وتوجيه الدلالة لكتاب الله بقدر ما كانوا يحرصون على جانب الصناعة، بمعنى أن يتم تصوير دلالة الآية في عبارة تستوفي شرائط الصحة اللغوية والنحوية. ومن هنا كان التقاء أصحاب اللغة والدراسات القرآنية مع أصحاب التفسير، وأدرك النحاة مع ذلك أن « بمعرفته - أي النحو - يعقل عن الله عز وجل كتابه، وما استوعاه من حكمة واستودعه من آياته المبينة وحججه المنيرة وقرآنه الواضح ومواضيعه الشافية. وبه يفهم عن النبي ﷺ آثاره المؤدية لأمره ونهيه وشرائعه وسننه، و به يتسع المرء في منطقه²».

كان للنحو هذا الدور في ضبط دلالة النص القرآني، والتعليل لهذا الضبط ومقابلته بما روي عن العرب من الآثار الأدبية. والنحاة الأولون كسيبويه والكسائي والفراء وأبي عبيدة والأخفش وغيرهم قد شاركوا بما قدموه من جهد في تيسير قراءة القرآن ورفع الالتباس على بعض القراءات وما توحى به من الدلالات من خلال تدارسهم للغة القرآن، والكشف عن العلل الكامنة وراء النظم القرآني وتفسيره بما يلاءم هذا النظم. فتقدّم تلك التفسيرات اللغوية جوا نفسيا ملائما لسياق النصوص، وبذلك يكون النحاة قد أسهموا فيما يمكن أن يوصف بأنه تحرير للنص وتوثيق له بعد صحة الرواية.³

لكن خلال القرون التالية لنشأة علم النحو، حدث أن انصرفت عن النحو طوائف من المحدثين والفقهاء؛ ووجهوا للنحويين وأهل اللسان من الشعراء والكتاب نقدا مُرّاً وهجاء مُقذعا، وذلك بجنوح النحو عندهم إلى كثرة العلل والأقيسة، وإلى تشعب المسائل والأصول والفروع وغيرها، وعلى هذا لم يبال المحدثون والفقهاء باللحن والجهل بالنحو. يقول ابن فارس عن معاصريه «وقد كان الناس قديما يتجنبون اللحن⁴ فيما يكتبونه ويقرؤونه اجتنابهم بعض الذنوب، فأما الآن فقد تجوزوا حتى أن المحدث يُحدث فيلحن، والفقهاء يُؤلف فيلحن فإذا نبها قالوا: ما ندري ما الإعراب، وإنما نحن محدثون وفقهاء، فهما يسيران بما يُساء به اللبيب».⁵

وروى السيوطي في الأشباه والنظائر قال: «دخل أبو يوسف القاضي ومحمد الحسن إلى الرشيد وعنده الكسائي يحدثه فقال يا أمير المؤمنين قد سعد بك هذا الكوفي وشغلك.

فقال الرشيد: النحو يستفز عني لأنني أستدل به على القرآن والشعر. فقال: إن علم النحو إذا بلغ فيه الرجل الغاية صار معلما، والفقهاء إذا عرف فيه الرجل جملة أو صدرا صار قاضيا.

فقال الكسائي: أنا أفضل منك، لأنني أحسن ما تحسن وأحسن ما لا تحسن. ثم التفت إلى الرشيد وقال إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن له في جوابي من مسألة الفقه.

فضحك الرشيد وقال أبلغت يا كسائي إلى هذا؟ ثم لأبي يوسف: أجه.
فقال الكسائي: ما تقول لرجل قال لامرأته أنت طالق إذا دخلت الدار؟
فقال أبو يوسف: إذا دخلت الدار طلقت.
فقال الكسائي: خطأ، إذا فتحت " أن " فقد وجب الأمر، و إذا كسرت فإنه لم يقع
بعد، فنظر أبو يوسف بعد ذلك في النحو»⁶.

وهذه الزهادة لم تقف عند عامة الناس من المُحدثين والفُقهَاء، بل
تعداهم إلى خاصة العلماء والعلماء المتخصصين. فنجد قطربا وهو تلميذ
سيبويه ينحرف عن جادة النحاة، ويتجه اتجاها يخالف فيه أستاذه، و يخرج
برأي يشذ فيه عن معاصريه.⁷

إنّ نظرة السخط هذه إلى النحو والإعراب حزت في نفوس كثير من
الفقهاء اللغويين مما جعل الإمام عبد القاهر (471هـ)⁸ وهو النحوي المُبرز
يتحسر على ما آلت إليه حالة النحو في زمانه، وينعي على هذه الطائفة في
افتتاح دلائل الإعجاز⁹ بقوله « أما النحو فظننته ضربا من التّكلف أو بابا من
التّعسف أو شيئا لا يستند إلى أصل ولا يعتمد فيه على العقل، وأن ما زاد منه
على معرفة الرفع والنصب وما يتصل بذلك مما تجده في المبادئ فهو فضل لا
يجدي نفعاً ولا تحصل منه على فائدة. وضربوا له المثل بالملح إلى أشباه لهذه
الظنون في القبيلين، وآراء لو عرفوا مغبتها وما تقود إليه لتعودوا بالله منها
ولأنفوا لأنفسهم من الرضا بها، وذلك بإيثارهم الجهل بذلك على العلم في
معنى الصّاد عن سبيل الله والمبتغي إطفاء نور الله تعالى».

ويذهب الجرجاني مرّة أخرى في الدلائل موجهها إلى هؤلاء اللّوم
«وأما زُهدهم في النحو واحتقارهم له وإصغارهم أمره وتهاونهم به، فصنيعهم
في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدّم وأشبهه بأن يكون صدّا عن كتاب الله
وعن معرفة معانيه»¹⁰.

ثم يُبرّر الجرجاني علّة كل ذلك « بأنهم لم يجدوا بُداً من أن يعترفوا
بالحاجة إليه فيه؛ و إذا كان قد علم أن الألفاظ مغلفة على معانيها حتى يكون هو

المستخرج لها، وأنه المعيار الذي يتبين نقصان كلام ورجاحته حتى يعرض عليه، والمقياس الذي يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه، ولا ينكر ذلك إلا من ينكر حسه وإلا من غالط في الحقائق نفسه. وإذا كان الأمر كذلك فليت شعري ما عذر من تهاون فيه وزهد فيه، ولم يرَ أن يستسقيه من منصبه ويأخذ من معدنه ورضي لنفسه بالنقص والكمال لها معرض، وأثار الغبينة وهو يجد إلى الربح سبيلاً».¹¹

2 - ملامح التفسير النحوي ونظرية النحو القرآني

لم يثن النُّحاة ما رأوه من مواقف تحقّر عملهم وتجعله لا طائل كبير منه. والتفتوا إلى النص اللغوي المعجز بالدراسة والتحليل ليبرهنوا ما للعامل اللغوي من شديد التفوذ والذي به يستطيع اختراق تراكيب النص القرآن وتوجيهها قياساً على كلام العرب في حديثها. فكان أول عامل منظم لهم في تفسير القرآن ما ظهر من بحوثهم مما اصطح على تسميته بـ " كتب المعاني"، كمجاز القرآن لأبي عبيدة ومعاني القرآن للفراء ومعاني القرآن للأخفش الأوسط ومعاني القرآن للزجاج وغير هذه كثير. وقد شاركت هذه المؤلفات في إيجاد قواعد النحو القرآني الذي نادى به بعض الدارسين المعاصرين تفرقة له عن النحو المؤلف.¹²

وتعد دراسة كتابي **المجاز لأبي عبيدة والمعاني** للفراء من أكثر الكتب اهتماماً من قبل الدارسين والباحثين في هذا المجال، لأن صاحبيهما يمثلان تدرج حياة النحو العربي وانقسامه إلى مذاهب. كما أن الرجلين وصلاً بين النحو و بين النص القرآني على خلاف بينهما في الإكثار والإقلال والإيجاز والتوسع.¹³ ولهذا كان التعرض للرجلين بالنقد كبيراً نتيجة اتجاههما النحوي في التفسير القائم على « فهم النص فهماً لغوياً بعيداً عن التأثير بدينيّات قد لا تعطيهما الدلالة اللغوية».¹⁴

ومن خلال هذا المسلك استطاع الرجلان أن يبدعا فيما أسماه المتأخرون بـ " نظرية النحو القرآني ".¹⁵ وهم يريدون بذلك « أن القرآن

الكريم قامت على أساسه قواعد، وبنيت على نهجه أصول سواء أكان معه شواهد أخرى تدعم هذه القواعد أم لم تكن؟ وسواء أكانت هذه الأصول تتفق مع أصول النحاة أم لا تتفق؟ ذلك لأن القرآن الكريم بقراءته المختلفة أغنى قواعد النحو وزاد من قيمتها وأمدّها بأمتن القواعد وأحسن الأساليب»¹⁶.

انطلقت الدعوة إلى هذه النظرية من خلال كتابي المجاز والمعاني، وهي عند الفراء أوضح وأكمل. ولعل الفراء أخذ الفكرة وجزئياتها من كتاب أبي عبيدة مجاز القرآن، ثم وسعها و قعد لها حتى عده الباحثون في الدراسات القرآنية المبدع الحقيقي لهذه النظرية،¹⁷ فقد بين أصولها وأدلتها وأسبابها. كما أنها ثمرة المساهمة الكبيرة مع أستاذه الكسائي¹⁸ في إنشاء المدرسة القرآنية النحوية التي ظهرت في الكوفة والتي تعتمد على عنصرى الإقراء والإعراب، حيث عني أصحاب هذه المدرسة وشيوخها بإعراب القرآن ورواية اللغة لتصحيح القراءات، كما حاولوا التوفيق بين القراءات التي كانوا يروونها وقواعد الإعراب التي تعلموها في مدارس البصرة التي سبقت الكوفة في هذا الميدان.

بنى الفراء نظريته على أساس علمي جديد، وجعل منها بعد أن تجاوز الإقراء والإعراب أحد ركائز المنهج اللغوي التفسيري العام. وقد رأى أن نظريته هي سياج الأمان لكتاب الله في زمن كثرت فيه النحل والأهواء واشتدت فيه العصبية ضد توجيه دلالة القراءات القرآنية، فوقف الفراء ينافح عن الكتاب العزيز وقال عبارته المشهورة: «إن لغة القرآن أفصح الأساليب العربية على الإطلاق»¹⁹. وكان يردد في غير مَلل بين اللغويين «الكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر»²⁰. فخالف بذلك قول من يرون أن شعر العرب ونثرهم هو النموذج الصحيح للغة العربية، ويستشهدون بالشعر على القرآن الكريم.

3 - نماذج من صور التفسير النحوي عند قدماء اللغويين

كثير ما يحاول أغلب النحويين والمتمرسين في التفسير تعليل أو تخريج الظواهر البليغة المعجزة أو المخالفة لقواعدهم في القرآن. وذلك يكشف عن وحدة طابع العمل النحوي اللغوي والعمل التفسيري. وعلى سبيل المثال مجيء صفة المؤنث مذكرة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: 55) إذ يلجأ النحاة إلى كل أساليب التخريج والتقدير الممكنة لكي يبدو مجيء الصفة على هذا النحو متسقا مع النمط.

يقول الجوهري « ذكرت على معنى الإحسان. وذكر الفراء أن العرب تفرق بين النسب والنسب والقرب من المكان فيقولون " هذا قريبتني " من النسب و"قريبي" من المكان... وقال الزجاج وهذا غلط لأن كل ما قرب من مكان ونسب فهو جاز على ما يقتضيه من التذكير والتأنيث... وقال أبو عبيدة ذكر "قريب" لتذكر المكان، أي مكانا قريبا».²¹

ورد ابن الشجري(546هـ)²² هذا الرأي بأنه « لو صح لنصب " قريب " على الظرف »²³. يقول الأخفش²⁴: « المراد بالرحمة هنا المطر، لأنه قد تقدم ما يقتضيه فحمل المذكر عليه. وقال الزجاج لأن الرحمة والغفران بمعنى واحد، وقيل لأنها من الرحم سواء. ومنه ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ فحملوا الخبر على المعنى، ويؤيده قوله تعالى ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ (الكهف: 94). وقيل الرحمة مصدر والمصادر كما تجمع لا تؤنث، وقيل " قريب " على وزن " فعيل " و" فعيل " يستوي فيها المذكر والمؤنث... وقيل من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، مع الالتفات إلى المحذوف، فكأنه قال " وإن مكان رحمة الله قريب " ثم حذف المكان وأعطى الرحمة إعرابه و تذكيره. وقيل من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، أي أن رحمة الله شيء قريب أو لطيف... وقيل من باب اكتساب المضاف حكم المضاف إليه إذا كان صالحا للحذف والاستغناء عنه بالثاني ... وقيل من الاستغناء بأحد المذكورين لكون

الأخر تبعا له ومعنى من معانيه، والأصل هنا " إن رحمة الله قريبة، وهو قريب من المحسنين " فاستغني بخبر المحذوف عن خبر الموجود»²⁵.

مثال آخر يبرز دور النحاة في البحث والكشف عن الصورة المثالية السليمة وراء الظاهر الحائد عن قواعده. ففي قوله تعالى ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ (الأعراف:11) يذهب الأخفش في معانيه²⁶ إلى أن " لـ " زائدة و أن التقدير " ما منعك أن تسجد " وكذلك في قوله تعالى ﴿ وَحَرَامٌ عَلَيَّ قَرْيَةً أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (الأنبياء:94) وقوله ﴿ لِيَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ ﴾ (الحديد:28) قال الزجاج التقدير في الأولى " وحرام على قرية أهلكتها رجوعها إلى الدنيا " و " لا " زائدة. و قال أبو علي إن قوله « أنهم لا يرجعون» داخل في المصدر – الذي هو حرام- و خبر " حرام " مضمرة، والتقدير " حرام على قرية أهلكتها بأنهم لا يرجعون موجود، أو كائن، أو مقضى".²⁷

وقد دأب النحاة على ذلك في كثير مما صادفوه في نص القرآن من صور الخروج على القواعد النحوية. ففي قوله تعالى: ﴿ يَدْعُوا لِمَنْ ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴾ (الحج:13) يقول الكسائي « اللام في غير موضعها، و "من" في موضع نصب بـ " يدعو" والتقدير " من لضره أقرب من نفعه، أي يدعو إليها لضره أقرب من نفعه " «²⁸.

كذلك فعل النحاة ذلك في قضية مخالفة الشكل الإعرابي، ففي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَرَى ﴾ (المائدة:71) ذهب النحاة إلى « رفع "الصابئين" لأنه ردّ على موضع " إن الذين" – وهو رأي الخليل وسيبويه -. و قال ابن قتيبة معلقا "إن" مبتدأة، و ليست تحدث في الكلام معني كما تحدث أخواتها، ألا ترى أنك تقول " زيدٌ قائمٌ " ثم تقول " إن زيدا قائمٌ " ولا يكون بين الكلامين فرق في المعنى ... و يدللك على ذلك قولهم " إن عبد الله قائمٌ وزيدٌ " فترفع - زيدا- فكأنك قلت - عبد الله قائمٌ وزيدٌ - ... وكان الكسائي يجيز " إن عبد الله و زيد قائمان " و " إن عبد الله و زيد

قائم»²⁹. وانتهى النحاة بعد مناقشات معمقة إلى تقدير صورة مثالية لمعنى الآية، وتقديرها « إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله منهم وعمل صالحا فلهم أجرهم، والصابئون والنصارى كذلك»³⁰.

كل هذه صورة توضح مدى حرص النحاة الأوائل في احتياجهم للغة القرآن لإظهارها بمظهر مثالي سليم. ومضى اللغويون خلال القرون الأولى خاصة يُعَنُونَ بدرس خصائص العبارات درسا لغويا، وأخذوا يتوسعون في المباحث اللغوية الخالصة منحازين عن مباحث البيان والبلاغة، كأنهم رأوها ميدانا آخر غير ميدانهم. وحمد نشاط اللغويين البلاغي على خلاف المتكلمين الذين ظل لهم نشاطهم و ظل يؤتي ثماره، ذلك أنهم بحثوا مباحث واسعة في إعجاز القرآن من حيث بيانه وبلاغته.

ورغم ما قدمه نحاة العربية من محاولات جادة في تفسير النص القرآني تفسيراً لغوياً ونحوياً بحثاً بعيداً عن الدلالات الدينية، إلا أن بعض كتابنا لم ينصف النحاة واللغويين ونعت نشاطهم بأنه لم ينحسر عن دراسات خصبة، وأنهم محافظون محافظة شديدة لم يكن يعنيه معها إلا أن يقسموا الكلام بالمقاييس العربية الخالصة. فلم يحاولوا أن يدعموا عقولهم بالتفسير الفلسفي على شاكلة المتكلمين بدءاً من أواخر القرن الثالث هجري.

لكننا نعرف كيف نشط البحث اللغوي في القرن الرابع عند أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني نشاطاً يتصل بالكشف عن فقه اللغة ومعرفة أسرارها. وقد نسج على مناولهما أحمد بن فارس كتابه الصحابي. كما توج القرن الرابع الهجري أيضاً بما تركه الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز و دور النحو والصيغ التركيبية للجملة اللغوية في رسم الدلالة السليمة للنصوص اللغوية وعلى رأسها النص القرآني المقدس.

لقد كشفت العلوم اللغوية الحديثة اليوم عن تلك القيمة اللسانية لكل تلك المدونات الأولى للغويين القدماء قبل القرن الرابع الهجري ودور النحو كمستوى نشط وأساس من مستويات الدراسة اللغوية، جاعلة من هذا الحقل أداة

حية في تفسير النص القرآني ومنهجاً بارزاً في التفسير اكتملت آلياته بعد ذلك مع تفسير الزجاج وأبي حيان وابن عطية من القدماء وتفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور من المحدثين.

4 - الخاتمة

إن هذا الموضوع الموسوم بقراءة في ملامح التفسير النحوي في عمل قدماء النحاة والتي نادى بنتائجها اللغويون المعاصرون اليوم بعد إعادة قراءتها تحت مسمى " نظرية النحو القرآني "، نصل فيه إلى النتائج التالية:

- يعد النحو عاملاً هاماً في فهم النص القرآني وتفسيره توجيهه قراءته عند قدماء العرب. وكان النحاة الأوائل من خلال تفاسيرهم وخاصة في كتب المعاني والمجاز يوجهون الحالة الإعرابية حسب المعنى دون الاقتصار على اللفظ، لأن اللفظ لا يمثل إلا البنية السطحية المنطوقة في حين يشكل المعنى في عملية التفسير النحوي اللغوي البنية العميقة للآية ولسياقها اللغوي والقرآني، وهذا ما انتهت إليه بحوث اللغويين المتأخرين كابن جني والجرجاني.

- يذهب التفسير النحوي عند قدماء العرب إلى إثراء المعنى النحوي وبيانه لدقائق الصياغة اللغوية، وقد أظهر هؤلاء أن دقيق النظم القرآني يتكشف لمن له معرفة باللغة وخبرة بأساليبها، ومن ثم أوضح أصحاب التفاسير النحوية واللغوية عامة علو شأن القرآن وعظمة دلالاته من خلال السياقات النحوية والإعرابية.

- من خلال قراءة عمل المفسرين النحويين فقد نجد أن وظيفة النحاة اللغويين قد ماثلت وظيفة المفسرين في سعيهم إلى الوصول إلى الدلالة السليمة للآية القرآنية، وقد أدرك النحاة العرب القدماء كأبي عبيدة والفراء والأخفش والزجاج غيرهم ذلك، فكان عمل النحاة أن جمعوا بين آليتين في توجيهاتهن النحوية في تفسير القرآن الكريم؛ آلية التوجيه النحوي وأخرى للتوجيه الدلالي.

- ترك النحاة الأوائل في كتبهم معاني القرآن ومجازه ومشكله ملامح قوية ومفاتيح مهمة على درجة كبيرة من الضبط ومنهجية البحث السليمة ، اتخذ منها أسلافهم من اللغويين آليات تفسيرية على كافة المستويات اللغوية الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية، بحيث لم يتركوا جنبه لغوية أو نحوية إلا وتحديثا بها وأصلوا لها في تفاسيرهم النحوية للقرآن الكريم.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 - إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط: 7، 1994م.
- 2 - أحمد مكي الأنصاري، كتاب نظرية النحو القرآني نشأتها تطورها ومقوماتها الأساسية، دار القبلة الإسلامية، ط: 1، 1405هـ.
- 3 - الأخفش (أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط 215 هـ)، معاني القرآن تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، دار الكتب، بيروت، د ط، 1405هـ - 1985م.
- 4 - القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، 646هـ)، إنباه الرواة على إنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، مؤسسة الكتب الثقافية، القاهرة، بيروت، ط: 1، 1406هـ - 1986م.
- 5 - الجرجاني (عبد القاهر)، دلائل الإعجاز، ت محمود محمد شاکر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 2، 1410هـ - 1989م .
- 6 - الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله 626 هـ) ، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993.
- 7- خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت، ط: 2، 1406هـ - 1986م.
- 8 - الزجاج (إبراهيم بن السري بن سهل أبو اسحاق 311هـ)، إعراب القرآن المنسوب تحقيق ابراهيم الأبيار، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، د ط، 1965.

- 9 - الزركشي (بدر الدين 794 هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الفكر، بيروت، ط:2، بلا سنة.
- 10 - سيد أحمد خليل، دراسات في القرآن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1969م.
- 11 - السيوطي (جلال الدين، 911هـ)، الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق إبراهيم محمد عبد الله، مجمع اللغة العربية، دمشق، د ط، 1987.
- 12 - ابن الشجري (ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة 542 هـ)، تحقيق محمود محمد طانجي، مكيبة الخانجي، القاهرة، د ط، بلا سنة.
- 13 - عبد العال سالم مكرم، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، دار المعارف، مصر، د ط، بلا سنة.
- 14 - ابن فارس، (أبو الحسن أحمد بن زكرياء، 395هـ)، الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق عمر فاروق الطباع، دار الفكر العربي، بيروت، د ط، بلا سنة.
- 15 - الفراء (أبو زكرياء يحيى بن زياد 207 هـ)، معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار. عالم الكتب، ط:3، 1403 هـ 1983م.
- 16 - ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري 276 هـ)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط:2.
- 17 - مكي بن أبي طالب القيسي 437 هـ ، مشكل إعراب القرآن، ت: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، ط: 3، 1407 هـ- 1987م.
- 18 - النحاس (أحمد بن محمد بن اسماعيل بن يونس المرادي 338 هـ)، إعراب القرآن، تحقيق زهير غازي زاهر، عالم الكتب، بيروت، ط:3، 1409 - 1988م.

الهوامش:

- 1 - سيد أحمد خليل، دراسات في القرآن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د ط، 1969م، ص70.
- 2 - خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت، ط:2، 1406هـ - 1986م، ص159.
- 3 - ينظر سيد أحمد خليل، دراسات في القرآن، ص69.
- 4 - اللحن في الكلام: الخطأ في الإعراب والبناء كرفع المنصوب أو فتح المضموم، جمع ألحان و لحون.
- 5 - ابن فارس، (أبوالحسن أحمد بن زكرياء، 395هـ)، الصاحبى فى فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب فى كلامها، تحقيق عمر فاروق الطباع، دار الفكر العربي، بيروت، دط، ص66، د سنة.
- 6 - السيوطى (جلال الدين، 911هـ)، الأشباه والنظائر فى النحو، تحقيق إبراهيم محمد عبد الله، مجمع اللغة العربية، دمشق، دط، 1987، ج3 ص534-535.
- 7- يقول قطرب: «إنما أعربت العرب كلامها لأن الاسم فى حال الوقف يلزمه السكون، فجعلوه فى الوصل محركا حتى لا يبطؤوا فى الإدراج، وعاقبوا بين الحركة و السكون وجعلوا لكل واحد أليق الأحوال به، و لم يلتزموا حركة واحدة لأنهم أرادوا الاتساع. فلم يضيقوا على أنفسهم وعلى المتكلم بحظر الحركات إلا حركة واحدة». إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط: 7 ، 1994م، ص220.
- 8 - عبد القاهر الجرجاني (471هـ) « فارسي الأصل، جرجاني الدار، عالم بالنحو والبلاغة، أخذ النحو بجرجان عن أبي الحسين محمد بن الحسين... ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي، و أكثر عنه، و قرأ و نظر فى تصانيف النحاة و الأدباء، و تصدر بجرجان، و حطت إليه الرحال، و صنف التصانيف الجليلة». القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، 646هـ)، إنباه الرواة على إنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،

دار الفكر العربي، مؤسسة الكتب الثقافية، القاهرة، بيروت، ط:1. 1406 هـ - 1986 م، ج2 ص188.

9 - الجرجاني (عبد القاهر)، دلائل الإعجاز، ت: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 2، 1410 هـ - 1989 م، ص8.

10- المرجع نفسه، ص28. انظر تفصيل ذلك في الأشباه والنظائر للسيوطي، ج1 ص170.

11- المرجع نفسه، ص28. انظر الأشباه والنظائر للسيوطي، ج1 ص170.

12- انظر كتاب نظرية النحو القرآني نشأتها تطورها ومقوماتها الأساسية، أحمد مكي الأنصاري، مطدار القبلة الإسلامية، ط: 1، 1405 هـ، ص90 و ما بعدها.

13- أحمد خليل، دراسات القرآن، ص71.

14 - ينظر المرجع نفسه، ص71.

15 - ذكر الدكتور أحمد مكي الأنصاري مجموعة من العلماء بعد الفراء كان لهم الفضل في الدعوة بهذه النظرية من أمثال: ابن خالويه(518هـ) وأبي عمرو الداني(444هـ) وابن حزم(406هـ) والقشيري(475هـ) والحريري(518هـ) والفخر الرازي(606هـ) وابن النير(633هـ) وابن تيمية(728هـ) وأبي حيان(745هـ) وابن الجزري(833هـ) والسيوطي (911هـ). أحمد مكي الأنصاري، نظرية النحو القرآني، ص41-44.

16 - عبد العال سالم مكرم، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، دار المعارف، مصر، دط، ص603.

17- أحمد مكي الأنصاري، نظرية النحو القرآني، ص38.

18- كان الكسائي بحق مؤسس مدرسة الكوفة النحوية، وشهد له أقرانه بذلك، و عن الكسائي قال الفراء: « قال لي رجل ما اختلافك إلى الكسائي وأنت مثله في النحو، فأعجبتني نفسي فأثيته، فناظرته مناظرة الأكفاء فكأنني كنت طائرا يغرف بمنقاره من البحر». القفطي، إنباه الرواة ، ج2 ص264. و لعل بن حمزة الكسائي تصانيف كثيرة تدل على طول باعه، و

سعة أفقه و غزارة علمه في النحو و اللغة و القراءة، وأذكر منها « كتاب معاني القرآن » و « كتاب مختصر النحو » و « كتاب القراءات » و « كتاب مقطوع القرآن وموصله » و « كتاب اختلاف العدد » « كتاب هادات الكناية في القرآن » وغيرها كثير.

19 - الفراء (أبو زكرياء يحيى بن زياد 207 هـ)، معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف

نجاتي، محمد علي النجار. عالم الكتب، ط:3، 1403 هـ - 1983 م، ج 1 ص 16.

20- المرجع نفسه.

21- الزركشي (بدر الدين 794 هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل

ابراهيم، دار الفكر، بيروت، ط:2، ج 3 ص 360-362.

22 - ابن الشجري: « هو هبة الله بن علي بن محمد بن عبد الله، أبو السعادات المعروف بابن

الشجري البغدادي، نسب إلى بيت الشجري من قبل أمه. كان أوجد زمانه، و فرد أوانه في

علم العربية و معرفة اللغة وأشعار العرب و أيامها و أحوالها، متضلعا من الأدب كامل

الفضل...وصنف الأمالي وهو أكبر تصانيفه و أمتعها، أملاه في أربعين وثمانين مجلسا».

معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله

الحموي (626 هـ)، ج 5 ص 592.

23 - انظر ابن الشجري (أمالي ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة 542

هـ)، تحقيق محمود محمد طانجي، مكيبة الخانجي، القاهرة، دط، ج 1 ص 346.

24 - راجع معاني القرآن للأخفش (أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط 215 هـ).

تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، دار الكتب، بيروت، دط، 1405 هـ - 1985 م، ج 1

ص 326.

25 - بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 3 ص 360-362.

26 - راجع معاني القرآن للأخفش، ج 1 ص 321. تفسير غريب القرآن لابن قتيبة.

ص 165.

- 27 - إعراب القرآن المنسوب للزجاج (إبراهيم بن السري بن سهل أبو اسحاق 311هـ). تحقيق إبراهيم الأبيار، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، دط، 1965، ص132-133.
- 28 - مكي بن أبي طالب القيسي 437 هـ ، مشكل إعراب القرآن، ت حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، ط: 3. (1407هـ-1987م)، ص423.
- 29 - ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري 276 هـ)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط: 2، ص37.
- 30 - النحاس (أحمد بن محمد بن اسماعيل بن يونس المرادي 338هـ)، إعراب القرآن، تحقيق: زهير غازي زاهر، عالم الكتب، بيروت، ط: 3، 1409 - 1988م ، ج1، ص287.